

المقدمة

إذا كنا اليوم نريد أن نتحدث عن الفتوحات الإسلامية التي جهزها واتفق علماء وأمر بها وسيرها وفاقاً لرأيه. وإذا كان لنا أن ننتقد سياسة الحجاج القامعة وإغراقه في العنف والقسوة والبطش. فإن علينا أن نحمد له رأيه في هذه البعوث العظيمة التي حملت رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند.

والمتشرفون وإن كانوا لا ينكرون على الحجاج شدته وقسوته ومظالمه. إلا إنهم لا ينكرون في الوقت نفسه أنه لولا هذه الشدة لما تمكن الحجاج من القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تهدد الإمبراطورية العربية. ولا تمكن بعد القضاء على هذه الفتن من توجيه البعوث إلى ما وراء الإمبراطورية على هذه الفتن من توجيه البعوث إلى ما وراء الإمبراطورية من الأقطار والممالك.

كان الناس أيام الحجاج إذا تلاقوا في المجالس أو المجامع والمساحة والأسواق تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وانتهى به الأمان في الظلم إلى أن يأمر الناس بحلق لحاهم. ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط فيموت جوعاً وألماً وهو لا يستطيع سبيلاً إلى الحراك.

كان يجد لذة في سفك الدماء وارتكاب مختلف ألوان العنف والقمع.

وقد أحصي عدد من مهام الحاج سواء من قتل في عساكره وحروبه. فوجد مائة وعشرين ألفاً. ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد. ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر في الشتاء. وكانت غير ذلك من أساليب العذاب.

الحجاج هذا الرجل الذي شغل الناس في عصره وشغلهم بعد عصره إذا نحن أمام ظاهرة عظيمة الخطورة بعيدة الأثر في دراسة التاريخ الأموي وتقديمه.

وكان يكره العراقيين وكان العراقيون يكرهونه واشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة

ابن الأشعث وأخذ يخشي حقدهم عليه بعد أن قتل كبارهم وفرق أوساطهم واد في قلوبهم.

هذه الشخصية التي حيرت كل المؤرخين عن حقيقة دوره في الدولة الأموية وقد جمعت كل التناقضات وتعددت الكتب والبحوث والدراسات التي تصدت للمرحلة الأموية ودور الحجاج فيها حيث كان دوره في الدولة الأموية مثل ميزان وعاد لها التوازن العسكري والسياسي للدولة الأموية.

الحجاج بن يوسف الثقفي هذه الشخصية التي تشبه بمصافي الدماء وتلذذ بالقتل ومشاهدته الجريمة وأمر يقتل الآلاف أن اختلفوا معه. وكان يحمل الكراهية لمن يقول له لا . لا يسمع النصيحة.

وكان يقتل الرجل على أبسط الأخطاء - حتى إن عبد الملك بن مروان صنجر منه وأراد التخلص منه لو لم يكن بحاجة إليه لما له من سمعة ترهب وترعب كل من يريد أن يقف بوجه الدولة الأموية لذلك أبقاه يتحكم برقاب الناس بالقتل والسجن والتعذيب. إنها شخصية محيرة - تستحق الدراسة والتحليل النفسي لهذه الرجل الذي انتزعت الرحمة من قلبه وبالرغم من كل ما قدمه من خدمات من الفتوحات الإسلامية في عهده لكن كل ذلك لم يشفع له عما ارتكبه من قتل وتنكيل بالناس. مما جعل كراهية له أين ما حل ومحاولة التخلص منه كان ينظر للعراق نظرة الكراهية والخوف منه لأنه يعلم أن العراقيين يرفضون الظلم والاستبداد لذلك كانت ثورات العراقيين ضده كثيرة وبالرغم من القتل بالأف الرجال فمنهم - لكن الثورات استمرت في العراق وهددت الحكم الأموي لذلك وكان الحجاج يقمع العراقيين بالعنف بالقتل. ولذلك عندما أعلن عن وفاته أخذ العراقيين يهنئون بعضهم بعض بإزاحة هذه الغمة التي أصابت العراق.

لقد كتب عن الحاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق القوي الكثير من البحوث والدراسات ولكن جميعها كانت تتحدث عن هذه الشخصية المتعطشة للدماء. والآخر يتحدث عن أعماله في نشر الدعوة الإسلامية في عهده وما قام به من فتوحات ولكن كما ذكرنا أن كل ذلك لا يعطيه الحق في ارتكاب المجازر والقتل والسجن عن أي سبب لا تستحق مثل هذه الإجراءات ولكن تعطشه للدماء وإثبات وجوده وولائه للدولة الأموية ارتكبت هذه

المجازر من ضربه الكعبة وقتل ابن الزبير ويترك جيشه ليرهق كل من يحاول الخروج عن الدولة الأموية.

لذلك كانت لبني أموية الحماية له ومنحه كل الصلاحيات بدون مساءلة للقيام بمثل هذه المجازر .

لقد قتل عشرات الآلاف من البشر ولو كانت هناك عدالة لكان وجب محاكمته بجرائم الإبادة البشرية ومعاقبته مع الذين سمحوا له بارتكاب هذه الجرائم التي أزهقت أرواح أبرياءه من الرجال والنساء والأطفال ونهب وحرقت اداضجام ودورهم. كانت جميع المراجع والكتب الذي وضعها أمامي متشابهة في الحكم عليه في مسيرته وسفكه الدماء وهي تتحدث عن فترة حياته وحكمه.

ولكن ليس في التاريخ شخص وثور به ملك من الملوك أو خليفة من الخلفاء كما وثق عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي بالحجاج بن يوسف عاملة على العراق وبلاد فارس وخراسان وما وراءهما من أمصار وبلاد.

لذا نجد أن تشابهت هذه المراجع فهي من مصب واحد وكل كاتب أو باحث وجهة نظره عندما يحلل هذه الشخصية ويكتب عن حياتها وأفعالها وإنجازاتها ولكن تبقى حقيقة واحدة هي أن الحجاج بن يوسف الثقفي هي الشخصية التاريخية التي حكم عليها التاريخ بأنها أسوأ مرحلة في تاريخ الدولة الأموية بالرغم من إنه حماها ولكن بالدماء التي زهقت وروت الأرض ولأن تشكوا هذا النظام والاستبداد الذي مارسه الحجاج بن يوسف ضد الولايات التي حكمها بالقوة وبمباركة من عبد الملك بن مروان ولكن الحقيقة تقول أن الحجاج كان موظفاً أحسن كل الإحسان في خدمة بني أمية ونجح كل النجاح في توطيد حكم عبد الملك بن مروان فإذا كان هناك أخطاء ارتكبها وما أكثرها يجب أن لا يغيب على حكم القارئ أن الحجاج كان يساير سياسة معينة ويقرر خطة قد يختلف عبد الملك بن مروان في طريق تنفيذها ولكنه ما أنكرها ولا سعي لوضع حد لها. فإذا فالحجاج في الواقع كان عاملاً ينفذ خطة مولاه وموظفاً أميناً لسياسة بني أمية في ذلك العهد العصيب من عصور الإمبراطورية العربية.

يقول بعض المؤرخين أن الحجاج أصيب بالسرطان في آخر أيامه. وإنه كان يتعذب عذاباً شديداً وإنه ظل على عذابه هذا خمسة عشر يوماً. ولما انتشر خبر وفاته بين الناس ظهر الفرح على الوجوه وأخذ الناس يهتفون بعضهم وسجد بعضهم للأرض شكراً لله على موت الحجاج كما ذهب آخرون يقسمون الإيمان المغلظة بأن الحجاج ذهب إلى النار وإنه الآن حطب في جهنم.

وقال ابن خلكان عن مرضه ”إن الله سلط عليه الزمهير فكانت الكوانين تجعل تحته مملؤه ناراً. وتدني منه حتى تحرق جلده. وهو لا يحس بها. وكان أئمة المسلمين يجمعون على تكفير الحجاج لبطشه وقتله الناس بغير حق. واختلف المؤرخون في مرض الحجاج وإذا نظرنا إلى أنه كان شراً - كثير الأكل - فلا يبعد أن يكون سبب موته. ما أصاب معدته من تعب وعناء. وما صارت إليه من عجز عن هضم الأطعمة الكثيرة.

كان الحجاج يخبر عن نفسه... أن أكثر لذاته سفك الدماء. وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه.

ومات في مدينة واسط ودفن بها وروي ابن خلكان إنه كان ينشد في مرض

موته هذان البيتين

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا
أيلفون على عمياء ويحجهم
إيمانهم أنني من ساكني النار
ما ظنهم بعظيم العفو غفار

ولما بلغ عمر بن العزيز موت الحجاج خر ساجداً - وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الآخرة هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي اختلف عليه في حياته ومماته ولكنه يبقى ذلك الرجل القوي الذي حمل سيفه ليقطع رقاب كل من يقف في طريقه وحمل معه كرهاً وذنباً وذكريات أليمة.

د. عبد الكريم العلوجي

خطبة الحجاج في أهل العراق

وقال الحجاج لأحد أصحابه:

- على بالناس!

فأخذ رجاله يدعون أهل الكوفة للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، والحجاج ساكت قد أطال السكوت، والناس لا يزالون في شك من أمره، حتى لقد فكر أحدهم في حصيه، فلما عج المسجد بالناس، وقف الحجاج وكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

”أما والله أني لأحمل الشر محمله، وآخذه بفعله، وأجزيه بمثله، وأنى لأري رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وأنى لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي قد شممت عن ساقها تشميراً.“

”أن أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلها مكسراً، فوجهني إليكم ورمي بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسننتم سنن الغي، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذرروا العصيان وتتقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا، إني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وأنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.“